أسلوب القصر بـ (إنّما) و(الاستثناء بعد النفي) في الآيات القرآنية التي وصفت الحياة الدنيا ومتاعها – دراسة تحليلية بيانية–

*جهاد محمد النصيرات**

ملخص

تتناول هذه الدراسة أسلوباً بلاغياً هامّاً هو (القصر) وذلك من خلال بعض أدواته وهي: "إنما" و"الاستثناء بعد النفي" وذلك من خلال حديث القرآن الكريم عن الحياة الدنيا ومتاعها، من أجل الوقوف على الأغراض البيانية لتنوع أسلوب القصر تبعاً لدلالة السياق وتنوع المقامات التي جاءت فيها الآيات موضع الدراسة في سبيل الكشف عن رافدٍ هام من روافدِ الإعجاز يتعلق بالإعجاز البياني.

الكلمات الدالة: القصر، النفي، الاستثناء.

المقدمـة

الحمد لله تعالى الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، والصلاة والسلام على خير من نطق العربية وتذوقها وأبان لنا من القرآن ما يحتاج لبيان، وعلى آله ومن استنّ بهديه إلى يوم الدين وبعدُ؛

فإنّ القرآن الكريم لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، يجد فيه المتدبر في كل ختمة دُرراً جديدةً ولآلئ نفيسة، وإنّ مما أوقفني وأنا أقرأ كلام ربي هذا التنوع في استعمال طرائق القصر وأساليبه في أثناء حديث القرآن الكريم عن الحياة الدنيا ومتاعها ضرباً للمثل بها، أو تقليلاً من شأنها، فنجده تارةً يأتي بأسلوب للقصر بـ "إنما" وتارةً يأتي بأسلوب آخر للقصر هو الاستثناء بعد النفي، وعلى وجه الخصوص الاستثناء بـ "ما وإلاّ"، وتارةً ثالثةً يجمع بين هذين الأسلوبين في موضعٍ واحد، فقامت هذه الدراسة على السؤال الرئيس التالي:– ما سرّ هذا التباين والتنوع في أسلوبي القصر في حديث القرآن الكريم عن الحياة الدنيا ومتاعها؟ وقد انبثق عن هذه المشكلة البحثية الرئيسة الأسئلة الفرعية التالية:

1. ما الآيات التي جاء أسلوب القصر فيها بـ (إنما) وما أغراض ذلك البيانية؟
2. ما الآيات التي جاء أسلوب القصر فيها بـ الإستثناء بعد النفي وما أغراض ذلك البيانية؟
3. ما الآية القرآنية التي جمعت بين هذين الأسلوبين معاً، وما أغراض ذلك من الناحية البيانية؟
4. ما الأسرار البلاغية في تنوع المقصور عليه في الآيات موضع الدراسة؟

وتنطلق هذه الدراسة من حقيقة أن القرآن الكريم نزل بأفصح الألفاظ مضمناً أحسن المعاني في أصح وجوه النظم، فبزّت البلاغة القرآنية بلاغة المفلقين والمصقعين من خطباء العرب وفرسان بيانهم، ومعلومٌ أنّ البلاغيين يجدون فروقاً يذكرونها بين طرق القصر وأساليبه تنطلق على أساسها هذه الدراسة التي تستمد أهميتها من كونها تتناول موضوعاً بلاغياً وأسلوباً دقيقاً من مباحث علم المعاني هو أسلوب القصر بالوقوف على استعمال القرآن لبعض طرقه في أثناء حديثه عن الدنيا ومتاعها، فاكتسبت هذه الدراسة حُلتها من تزيّيها برافدٍ هام من روافد الإعجاز وهو الإعجاز البياني الذي تحاول الدراسة الكشف عن بعض مظاهرة.

وبناءً عليه يمكن إجمال أهداف هذه الدراسة بالنقاط التالية:

1. الكشف عن الأغراض البيانية لأسلوب القصر بـ "إنما" والاستثناء بعد النفي في المواضع التي جاءت فيها.
2. بيان بلاغة كل أسلوب للسياق الذي جاء فيه، الذي لو أُبدل غيره مكانه لذهب الرونق وفسد المعنى.
3. إبراز سرّ التنوع في المقصور عليه في مواضعه التي جاء فيها.

أما بخصوص الدراسات السابقة لهذا الموضوع، فلا أعلم دراسة علمية مؤصلة تناولت هذا الموضوع في الآيات مدار الدراسة على وجه الخصوص، خلا ما جاء من إشارات في

* كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، عمان. تاريخ استلام البحث 2013/4/1، وتاريخ قبوله 2013/9/3.

© 2014 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

بعض كتب البلاغة والتفسير، ولكن الباحث هنا أفاد كثيراً من بعض الدراسات والرسائل من مثل:

1. كتاب دلالات التراكيب – دراسة بلاغية– للأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى – حفظه الله– الذي تشرب البلاغة الجرجانية الصافية وأتقن أصولها وأبان فصولها من غير الحاجة إلى تقسيمات المناطقة وتشقيقاتهم، فقد أفرد نحو (150) صفحة من كتابه المذكور للحديث عن القصر وطرقه وتقسيماته وعن الفروق الدقيقة بين هذه التراكيب.

2. رسالة جامعية (ماجستير) وسمت بـ: أسلوب الحصر في القرآن الكريم عند النحويين والبلاغيين. إعداد: فؤاد رشدي الحطاب، وإشراف الدكتور يوسف أبو العدوس من كلية الآداب في جامعة اليرموك في الأردن للعام 1998م. ومن عنوان هذه الرسالة يتضح أنها تناولت أسلوب الحصر تأصيلاً وتطبيقاً في القرآن الكريم، فلم تعرض للآيات موضع الدراسة بالتحليل الدقيق للكشف عن سر التغاير بين أساليب القصر فيها، بينما تقوم هذه الدراسة على استقراء الآيات موضع الدراسة وتناولها بالتحليل والموازنة، فجمعت هذه الدراسة بين الاستقراء والتحليل والمقارنة.

فجاءت هذه الدراسة في مقدمة وتمهيد وثلاثة مطالب وخاتمة.

- المقدمة
- التمهيد: التعريف بالقصر وأقسامه وطرائقه والفروق بينها.
- المطلب الأول: أسلوب القصر بـ (إنما) وأغراضه البيانية.
- المطلب الثاني: أسلوب القصر بـ (الاستثناء بعد النفي) وأغراضه البيانية.
- المطلب الثالث: الجمع بين الأسلوبين معاً، وأغراضه البيانية.
- الخاتمة: وفيها يعرض الباحث لأهم نتائج الدراسة وتوصياتها.

ولا أدعي في هذا كله الصواب، فإنّ أصبتُه فمن الله، وإن جانبته فأسأل الله أن أجد من يعينني فنقومه ونعيده للصواب والحمد لله في ذلك كله.

التمهيد: التعريف بالقصر وأقسامه وطرائقه والفروق بينها

أولاً: تعريف القصر لغةً واصطلاحاً

يرى بعض المصنفين استعمال كلمة (الحصر) إزاء كلمة (القصر) على اعتبار أن مضمونهما البلاغي واحد في نهاية الأمر، كما فعل السيوطي حين قال: "أمّا الحصر ويقال له القصر"[1]، وتبعه التهانوي في كشاف اصطلاحات الفنون إذ يقول: "الحَصر بالفتح وسكون الصاد المهملة في اللغة: الإحاطة والتحديد والتعديد، وعند أهل العربية هو القصر وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه، وكثير من الناس لم يُفرق بينه وبين الاختصاص، وبعضهم فرّق بينهما"[2]. ونحن – وإن كنّا لا نرتضي الترادف بين هاتين الكلمتين (الحصر) و(القصر) فإن القرآن الكريم قد جعل لكل كلمة منهما ميدانها الخاص بها التي وإن شاركت غيرها في بعض السمات تبقى لها خصوصيتها المميزة، بحيث لو نزعت من مكانها واستبدل غيرها بها لذهب الرونق وفسد المعنى– فإننا نرى أنّ بعض المصنفين قد جعلهما دالين على معنىً قريب وهو تخصيص الشيء بآخر، وبعضهم فرّق بينهما، وبعض المصنفين من جعل الكلمتين مترادفتين، وهذا ما لا نقول به. والذي يبدو من استعمال كلمة القصر أنّ أول ظهور لها كما يرى د. أبو موسى كان على لسان أبي يعقوب السكاكي في مفتاحه[3].

وأما قبل ذلك فكان الحديث عن الاختصاص ضمن مباحث التقديم والتأخير، على اعتبار عدم وجود فرق بينهما عند من يرى ذلك[4]، ويبدو أن الذي استقر عليه الأمر بعد التحقيق أن كلمة (الحصر) اشتهرت في بيئة المفسرين والنحويين، وأما القصر فاشتهر في بيئة البلاغيين وعُرف عند النحويين أيضاً. وأما عند الجرجاني والزمخشري فقد استخدم الاختصاص للدلالة على الحصر والقصر معاً.[5]

القصر لغةً: يقول الفراهيدي: "والقصر كفك نفسك عن الشيء، وقصرتُ نفسي على كذا أقصرها قصراً، وقصرتُ طرفي أي لم أرفعه إلى ما لا ينبغي"[6]، ورأى ابن فارس أنّ "القاف والصاد والراء أصلان صحيحان: أحدهما يدل على ألا يبلغ الشيء مداه ونهايته والآخر على الحبس والأصلان متقاربان"[7]. وقد كان الشيخ ألمعياً – رحمه الله– فالتقارب بين الأصلين واضح، بل إن الأصل الأول يعود إلى الثاني فعدمُ بلوغ الشيء مداه إنما هو لأنه حُبس على الحال التي هو فيها، وكان مدار هذه الكلمة يدور على الحبس أيضاً عند الأزهري[8] وابن منظور[9] وغيرهما.

القصر اصطلاحاً: تقدّم أنّ أول من وضع مبحثاً للقصر في كتبه – فيما وصل إلينا– هو السكاكي الذي عرّفه قائلاً: "تخصيص الموصوف عند السامع بوصفٍ دون ثانٍ"[10] وظاهر التعريف أنه قصره على نوع واحد من أنواع القصر هو: قصر الموصوف على الصفة، وإن لم يرد صاحبه ذلك، لذا فقد استدرك السبكي هذا الأمر في شرحه لتلخيص المفتاح (للقزويني) فقال: "هو تخصيص أمرٍ بآخر بإحدى الطرق الأربع، كذا قالوه، وسيأتي أنها أكثر من أربع"[11]. وقد جاء السيوطي بعده فأفاد من هذا التعريف وأحسن إخراجه حتى غدا مصدراً لكل من عرّفه بعد ذلك، ثمّ تبنى أن طرق القصر فعلاً

أكثر من أربع بل وأوقفها على (14) طريقه، فقال في تعريفه له (السيوطي، 1987): "تخصيص أمرٍ بأمرٍ بطريق مخصوص"[12]، فالسيوطي قد قيّد هذا التخصيص بكونه بطريق مخصوص، ولو لم يضع هذا القيد لكان التعريف غير منضبط لكثرة الأساليب التي تفيد التخصيص في اللغة العربية[13]. وبذا نستطيع أن نقول ونحن مطمئنون أن أركان القصر ثلاثة: مقصورٌ ومقصورٌ عليه وطريقةٌ في القصر، وإن لم يذكر بعض المصنفين[14] هذا الركن الأخير على اعتبار أن بعض طرق القصر ليس لها أداة محددة كتقديم ما حقه التأخير مثلاً. وبعضهم أضاف ركناً آخر وهو المقصور عنه وهو المنفي المستبعد بالقصر ففي قولنا: لا إله إلا الله، فالمقصور هو صفة الإلهية للمعبود بحق، والمقصور عليه لفظ الجلالة، والمقصور به النفي والاستثناء، وأما المقصور عنه فهو كل ما سوى الله عز وجلّ[15]. وأياً ما كان فلا مزيد فائدة في هذا الاختلاف ولا طائل تحته.

ثانياً: أقسام القصر

ذكر السكاكي أن القصر يجري بين المبتدأ والخبر، وبين الفعل والفاعل، وبين الفاعل والمفعول، وبين المفعولين، وبين الحال وصاحبها، وبين كل طرفين، وتحدث عن القصر الحقيقي وغير الحقيقي وقصر الموصوف على الصفة والصفة على الموصوف[16]. ثم جاء القزويني فكان أكثر توضيحاً عندما قسم القصر إلى ضربين رئيسين: حقيقي وغير حقيقي، وكل منهما نوعان أو صورتان: قصر الموصوف على الصفة وقصر الصفة على الموصوف، وبيّن أن المراد بالصفة في مباحث القصر: الصفة المعنوية وليس النعت الذي يتكلم عنه النحويون لأن الصفة المعنوية أعمّ برأيه القزويني[17]. وازدادت هذه التقسيمات دقةً وتعقيداً بعد ذلك عند السبكي[18] والتفتازاني[19] ومن جاء بعدهما من روّاد مدرسة السكاكي.

وكان الشيخ عبد القاهر الجرجاني– رحمه الله– قد سبقهم جميعاً في حديثه عن بعض مسائل إنما والنفي بعد الاستثناء والعطف الجرجاني[20] وإن لم يتكلم عن القصر باسمه، فالشيخ – رحمه الله– هو من فتق أسرار هذا العلم وكشف عن شذا أزهاره، وجلّى إشراق أنواره، فكان حديثه هو الأساس لكل من جاء بعده، فما زادوا عليه إلا بكثرة التقسيم والتفريع والتبويب، وقد انتقد عبد المتعال الصعيدي هذه التقسيمات فقال: "ولا يكتفي القوم ههنا بتقسيم القصر إلى هذين القسمين (الحقيقي وغير الحقيقي) بل يجرون في تقسيمه باعتبارات مختلفة إلى أن يصل بهم ذلك إلى التعقيد والإملال، فيقسمونه باعتبار المقصور إلى قصر موصوف على صفة وقصر صفة على موصوف، وباعتبار حال المخاطب إلى قصر إفراد وقلب وتعيين، ولا شك أنّ علم البلاغة لا يستفيد من هذه الأقسام التي أشرنا إلى بعضها وأعرضنا عن بعضها الآخر حتى لا نشوه علم البلاغة. وإنما جرى المتأخرون في ذلك وراء السكاكي ونزعته المنطقية وشغفه باستنباط القواعد واستقراء الجزيئات المندرجة في الكليات"[21].

ومع هذا، فإننا لا نجد بُداً من ذكر هذه التقسيمات على إيجاز وذلك لأن كتب البلاغة قد ضاقت بها ذرعاً فعمَّت بها البلوى وامتلأت بها كتب التفسير ولا مندوحة من التعامل معها.

وموجز ما ذكر القوم أن للقصر تقسيمات عديدة باعتبارات مختلفة:

1. باعتبار طرفيه:– قسمّوه إلى: قصر صفة على موصوف وقصر موصوف على صفة.
2. باعتبار الحقيقة والواقع:– قصر حقيقي وقصر إضافي ويسمّونه إدّعائي أو غير حقيقي أو مبالغة.
3. باعتبار المخاطبين:– قصر قلب وإفراد وتعيين.
4. باعتبار غرض المتكلم:– فإذا كان قصد المتكلم في جملة الحصر نفي العموم كان الحصر حقيقياً وأما إذا كان قصده نفي الخصوص فيكون الحصر إضافياً.

فالقصر الحقيقي: هو تخصيص شيء بشيء بمعنى إثباته له ونفيه عن كل ما عداه، والإضافي أو الإدعائي فهو تخصيص الشيء بالشيء وتنفيه عن كل ما عداه نفياً يقوم على المبالغة والتجوز ولا يقوم على المطابقة الحقيقية للواقع يقول السيد الشريف: "والظاهر أن تخصيص الشيء بالشيء على معنى أنه لا يتجاوزه إلى غيره أصلاً إنما يسمى قصراً أو تخصيصاً حقيقياً، لأنه حقيقة التخصيص المنافية للاشتراك، ولذلك يتبادر هذا المعنى عند إطلاق التخصيص، وما في معناه، وأما تخصيص الشيء بآخر على معنى أنه لا يتجاوزه إلى بعض ما عداه فهو معنى مجازي للتخصيص غير منافٍ للاشتراك ولذلك يحتاج في فهمه من لفظ التخصيص إلى قرينة، ويسمى تخصيصاً غير حقيقي"[22].

وأما قصر القلب فهو يقوم على قلب حكم المخاطب إذا اعتقد العكس، وأما الإفراد فهو إذا كان المخاطب يعتقد الشركة، وأما التعيين فهي في حال تساوت الاحتمالات عند المخاطب[23].

ويرى السعد التفتازاني أنه لا مزيد فائدة في دراسة القصر الحقيقي لقلة جدواه (التفتازاني، 2004)[24]. وإن تقسيم القصر إلى قلب وتعيين وإفراد إنما هو في الإضافي (غير الحقيقي)[25]. لكنني وقعت على كلام نفيس لأستاذ البلاغة العربية محمد أبي موسى يرى فيه أن الصور الأدبية الرائعة والعالية يكمن أساس

قوتها البيانية في كون القصر فيها حقيقياً[26] وليس كما قيل من أنه قليل الجدوى.

ولا بدّ من الإشارة هنا أنهم عندما تحدثوا عن القصر باعتبار حقيقته وطبيعته: قصر صفة على موصوف وقصر موصوف على صفة، ذكروا أن الأول منهما يحتمل أن يكون قصره حقيقياً أو إضافياً بحسب الواقع الخارجي، أما قصر الموصوف على الصفة فإنه لا يكون إلاّ إضافياً لتعذر الإحاطة بصفات الشيء[27]. يقول أبو موسى: "أما قصر الموصوف على الصفة قصراً حقيقياً تحقيقاً فهذا يعني أن يكون للموصوف صفة واحدة لا يتجاوزها إلى غيرها على وجه الحقيقة، وهذا حين تتأمله تجده لا يكاد يقع، لأنه ما من موصوف إلا وله صفات كثيرة تتعذر الإحاطة بها أو تتعسر كما قالوا"[28].

ثالثاً: طرق القصر

كان حديث الشيخ عبد القاهر الجرجاني عن طرق القصر – وإن لم يسمّه باسمه– الأصل الذي اعتمد عليه البلاغيون المتأخرون وإن قعّدوه بقواعدهم وقسّموه بتقسيماتهم المختلفة، فقد تحدث – رحمه الله– عن التخصيص على اعتبار أنه غرضٌ من أغراض التقديم الهامة[29]، وتحدث عن "إنما" وما يتعلق بها من أحكام في إفادة التخصيص في فصولٍ خصصّها لها[30]. كذلك تحدث عن القصر بـ "لا" العاطفة[31]، وتحدث كذلك عن "ما" و"إلاّ" والفروق بين هذه الطرق[32].

وجاء السكاكي فجمع هذه الطرق الأربعة وجعلها الطرق الرئيسة للقصر[33]، أما السبكي فقد ذكر أنها أكثر من أربعة طرق بعضها باتفاق وبعضها باختلاف منها: الفصل، وذكر المسند إليه، وتعريف المبتدأ والخبر، وكلمة نفس، وتوالي التوكيد، وقلب بعض حروف الكلمة، نحو قولك قائمٌ في جواب: زيدٌ إما قائم أو قاعد، وتقديم المعمول، وحذف المسند[34]. وأخذ السيوطي على عاتقه تفصيل الطرق الأربعة عشر التي قررها السبكي وهي: النفي والاستثناء، إنما، أنّما، العطف بـ (لا) أو (بل)، تقديم المعمول، ضمير الفصل، تقديم المسند إليه، تقديم المسند، ذكر المسند إليه، تعريف الجزأين (المبتدأ والخبر)، كلمة (نفس)، توالي المؤكدات، ووجود الاسم منكراً ومقدماً في جواب (إما) نحو: زيدٌ إما قائم أو قاعد، فقائم أفادت الحصر، وآخرها قلب حروف بعض الكلمة[35]. وأول ما يلحظ حول هذه الطرق التي ذكرها السيوطي أنه يمكن دمج الكثير منها لتداخلها، وعلى كلٍ فإنّ جلَّ المصنفات البلاغية الحديثة قد وقفت عند هذه الطرق الأربعة المتقدمة، ولم تهمل الحديث عن بعض الطرق الأخرى في المباحث البلاغية المختلفة كالتقديم والتأخير والحذف والذكر وغيرها. لكنّ شيخ البلاغة في العصر الحالي الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى يرى أن يُضاف لهذه الطرق الأربعة المتقدمة: تعريف المسند، وضمير الفصل، فتصبح هذه الطرق ستة وذلك لدقة وجه الدلالة وهي: الدلالة فيهما (في الطريقين الأخيرين)، ولطافتهما، ودلل أبو موسى ببعض الشواهد على دلالتهما في القصر ثم علل سبب عدم عناية المصنفين الذين كتبوا عن القصر بهما: أنه قد سبق ذكرهما في أحوال المسند إليه والمسند[36].

رابعاً: الفروق بين طرق القصر

تحدث الشيخ الألمعي عبد القاهر الجرجاني في (الدلائل) عن الفروق بين أدوات القصر بـ (إنما) و(لا) العاطفة، والاستثناء بعد النفي في (ما) و(إلاّ) وذلك في معرض حديثه عن اختصاص كل طريق من هذه الطرق بمجالات يتم فيها الكلام لها بما لا يتم به لغيرها، فهي جميعاً وإن اشتركت في تخصيص شيءٍ بشيء إلا أن لكل طريقة سماتها الخاصة المميزة لها. وفي تلخيص رأي الشيخ هنا ما يُغني عن آراء غيره لأنهم ما خرجوا عنه، وكان مما قاله الشيخ: أنّه ليس كلامٍ يصلح فيه (ما) و (إلاّ) يصلح فيه (إنما). فموضع (إنما) أن تأتي لخبرٍ لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته، أو لما يُنزل هذه المنزلة، وذلك أننا نقول للرجل (إنما هو أخوك) فلا نقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحته، ولكن لمن يعلمه ويقرُّ به، وأما مثال من ننزله هذه المنزلة قول الشاعر:

إنما مصعبٌ شهابٌ من الله

تجلت عن وجهه الظلماء[37]

فقد ادعى في كون الممدوح بهذه الصفة، أنه أمرٌ ظاهرٌ معلومٌ للجميع على عادة الشعراء إذا مدحوا أن يدّعوا في الأوصاف التي يذكرون بها الممدوحين أنها ثابتة لهم وقد شُهروا به، وأنهم لم يصفوهم إلا بالمعلوم الظاهر الذي لا يدفعه أحد[38].

وأما النفي والإثبات بـ (ما) و(إلاّ) فقد بيّن الشيخ أنها بخلاف ذلك، أي في الأمر الذي ينكره المخاطب ويشك فيه، فإذا قلت: ما هو إلا مصيب، أو ما هو إلا مخطئ، قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته، وإذا رأيت شخصاً من بعيد، فقلت: ما هو إلا زيد، لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد وأنه إنسان آخر، ويجدُّ في الإنكار أن يكون كذلك[39].

وبيّن الشيخ – رحمه الله– أن القصر بـ (إنما) يجوز أن نعطف بعده (لا) فنقول: إنما هو قائم لا قاعد، إلا إذا كان الفعل بعد (لا) لا يصح إلا من المذكور ولا يكون من غيره، كقولنا: إنما يتذكر أولو الألباب لا الجُهّال لأن ذلك معلوماً، ولا يجوز ذلك مع (ما) و(إلا) ، لأننا إذا قلنا : ما زيدٌ إلا قائم، فقد

نفينا عنه صفة تنافي القيام، فليس هو بقاعد ولا مضطجع ولا متكئ، فإن قلنا بعدها (لا قاعد) كنا قد نفينا بـ (لا) العاطفة شيئاً قد بدأنا بنفيه[40]، فنفي النفي إثبات، لكن الأمر في (إنما) يختلف فصحيحٌ أننا حصرناه بالقيام دون غيره، ولكننا لم ننف عنه القعود وغيره، فحسن دخول (لا) النافية دون دخولها على الاستثناء بعد النفي[41].

وبيّن الشيخ ميزةً أخرى لـ(إنما) على (لا) العاطفة في أن القصر بـ (إنما) يقع دفعةً واحدة بخلاف ما لو قلنا: جاءني زيدٌ لا عمرو. فالقصر هنا معلق بحالين. بينما (إنما) تفيد إيجاب الفعل لشيء ونفيه عن غيره دفعة واحدة وفي حال واحدة[42].

وأضاف الشيخ ميزةً أخيرة لـ(إنما) على أخواتها من طرق القصر وهي إفادتها للتعريض. ففي قوله تعالى: "إنما يتذكر أولو الألباب" الرعد/19 والزمر/9، فليس الغرض أن يعلم السامعون ظاهر معناه ولكن أن يُذمَ الكفارُ، وأن يُقال لهم: إنهم من فرط عنادهم وغلبة هواهم في حكم من ليس بذي عقل[43].

ولم يغب عن ذهن الشيخ في أثناء ذلك كله اشتراك (إنما) و(ما) و(إلا) في القصر في مجيء المقصور بعد (إنما) والمقصور عليه بعد ذلك، ويأتي المقصور بعد النفي ويأتي المقصور عليه بعد الإثبات، وأن التقديم والتأخير في ذكر الأفعال والأسماء بعد (إنما) أو النفي والإثبات إنما يكون لتغير المعاني في النفس، فترتيب الكلام في النطق إنما هو بعد ترتيب المعاني في النفس[44].

وقد انتصر – من المحدثين– أبو موسى لآراء الجرجاني في الفروق بين هذه الأدوات والطرق، ودلّ عليها بل وزاد عليها الكثير.

ومما ذكره: "وهكذا تمضي مع النفي والاستثناء ولا تلقاك هذه الأداة إلا حيث تلقاك النبرة العالية والنغمة الحاسمة، والتعبير الشديد، ثمّ إنّ مسألة إنكار المخاطب هنا أيضاً يجب أن نتلقاها بالوعي السابق، يعني أن ندرك أن المخاطب في كل حال ليس هو شخصاً أو جماعة معينة ترفض الحقيقة وتجادل في شأنها وإنما هو في كثير من الحالات أشبه بوعي الجماعة و كأنه رمز لهذا المحيط البشري الذي يتحدث فيه الأديب في زمانه وغير زمانه ممن يتلقون كلمته في توالي الأحقاب"[45] ومما أضافه أبو موسى: "ثم إن عبد القاهر والبلاغيين أغفلوا ضروباً من القصر بالنفي والاستثناء لا يجري فيها ما يذكر في أحوال المخاطب، ولا تجد الكلام يستقيم لك إذا حاولت اعتسافه على هذا الطريق فدريد بن الصمّه حين قال:

وما أنا إلا من غزيه إن غوت
غويت وأن ترشُد غُزيّه أرشد[46]

إنما يؤكد إحساسه بالانتماء إلى رهطه وأنه مقصور على كونه من هذه القبيلة يجري عليه ما يجري عليها من هداية وغواية، وهذا شيء لا ينكره أحد على الشاعر... فالتوكيد هنا لا يفسره حال المخاطب، وليس خصوصية في اللفظ... وإنما هو خصوصية تفسر شيئاً في داخل المتكلم... وهناك مواقع للنفي والاستثناء لا يفسرها حال المخاطب وإنما حال المتكلم وحسه بالمعنى مثل قوله تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87)} [الأنبياء: 87، 88] ، ففي قوله "لا إله إلا أنت سبحانك" فلا يُعقل فيه مراعاة المخاطب وهو الله تعالى وإنما حال المتكلم وإحساسه بالمعنى وأنه متقرر في نفسه مؤكد في ضميره... وهناك مواقع للنفي والاستثناء لا يفسرها حال المخاطب، ولا يفسرها حال المتكلم وإنما يُقال فيها أن النفي والاستثناء جاء لمحض التوكيد والتقرير كما في قوله تعالى: {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106)} [الأنعام: 106] ، فليس المخاطب عليه السلام منكراً ولا نزلَ منزلة المنكر وهذا واضح، ولو ذهبنا إليه لكان لغواً من القول، كما أن المتكلم ليس عميق الإحساس بالفكرة قوي الشعور بها لأنه سبحانه جل عن ذلك، وإنما النفي والاستثناء هنا لمحض التوكيد وإفراغ الحقيقة في قالب متين موثق لتقريرها وتوكيدها في النفوس بهذه اللهجه الحاسمة"[47]. وهذه ملاحظة رائعة من د. أبي موسى تدل على أنه ارتشف بلاغة الجرجاني بل إنها سرت في دمه وأدرك تماماً أنها تقوم على الإحساس والتذوق قبل أن تقوم على التقعيد والتقسيم، وقال أبو موسى عن (إنما): " طريق (إنما) هنا لا يقوم مقام النفي والاستثناء، وكأنها لا تطيق حمل هذه المعاني الحاسمة في هذا السياق المتوتر، لأنها أداة رقيقة ناعمة بخلاف النفي والاستثناء، ففيها من الامتداد والحدة ما يجعلها قادرة على أن تحمل تلك المعاني التي يراد بها لفت المخاطب إلى حقيقة قد أغفلها وسار في أمره على غير هداها"[48]. وقال عنها في موضع آخر "إن النفي فيها نفي متضمن مخبوء وخافت، فليس له من الجهارة والقوة ما للنفي في (ما) و(إلا) وترتب على ذلك أنه صح أن تجامع (لا) العاطفة التي لا ينتفي بها شيء قد نفى قبلها بغيرها لأن النفي مع (إنما) ليس نفياًصريحاً"[49].

المطلب الأول: أسلوب القصر بـ (إنما) وأغراضه البيانية

أولاً: قوله تعالى: {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا

كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24)} [يونس: 24].

هذه الآية جاءت في سورة يونس المكية النزول، حيث غلب على هذه السورة طابع الموضوعات المكية التي تدور حول "حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية، وحقيقة العلاقات بينهما، وتعريف الناس بربهم الحق الذي ينبغي أن يدينوا له ويعبدوه، ويتبعوا أمره وشرعه، وتنحية كل ما دخل على العقيدة الفطرية الصحيحة من غبش ودخل وانحراف والتواء، وردّ الناس إلى إلههم الحق الذي يستحق الدينونة لربوبيته"[50]. لذا يرى سيد قطب – رحمه الله– أن الموضوع الرئيس في سورة يونس هو ذات الموضوع العام للقرآن المكي، تتناوله السورة وفق طريقتها الخاصة التي تحدد شخصيتها وملامحها، فهي تواجه ابتداءً موقف المشركين في مكة من حقيقة الوحي إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، فتقرر لهم أن الوحي لا عجب فيه وأن هذا القرآن ما كان ليفترى.

وتواجه طلبهم لخارقة مادية – غير القرآن– واستعجالهم بالوعيد، وتقرر لهم أن آية هذا الدين هو هذا القرآن وهو يحمل برهانه في تفرده المعجز الذي تتحداهم به.

وتواجه اضطراب تصورهم لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، فيكذبون بالوحي أو يتشككون فيه ويطلبون قرآناً غيره، بينما هم سادرون في عبادة ما لا يضرهم ولا ينفعهم من الشركاء. على اعتقاد أنهم شفعائهم عند الله. فتقرر لهم صفات الإله الحق وآثار قدرته في الوجود من حولهم وفي وجودهم هم أنفسهم، وتصور لهم حضور الله سبحانه وتعالى وشهوده لكل ما يهم البشرية وتملأ نفوسهم بالتوجس والتوقع لبأس الله في كل لحظة ليخرجوا من غفلتهم بسبب الرخاء والنعمة فلا ينخدعوا بازدهار الحياة من حولهم، ثم تواجه ما يترتب على اضطراب تصورهم للألوهية من تكذيبهم بالبعث والآخرة، من انفلاتهم في واقع الحياة العملية يزاولون خصائص الربوبية في التشريع لحياتهم.[51]

فجاءت هذه الآية موضع الدرس في سياق تحذيرهم من بأس الله وأن لا يغتروا بالنعم ولا ينخدعوا بازدهار الحياة حولهم فيأمنوا بأس الله الذي يأتي بغتة، فالآية قصرت تشبيه الحياة الدنيا على تشبيهها بصورة منتزعةٍ من أشياء هو في عُرف البلاغيين من صور التشبيه التمثيلي، فالماء ينزل من السماء فيختلط بالنبات الذي يمتصه فيزدهر به، وها هي الأرض تزدهر وتتزين بخضرتها، وأهلها مزهون بها، يظنون أنهم سبب ازدهارها وإثمارها فلا ينازعهم أحد في ثمرها وشجرها، وفجأة وبدون مقدمات وفي لمحة العين يطوف عليها طائف من الله، فإذا هي هامدة كأن لم تكن، فبأست هي الدنيا التي يغتر بها أهلها ويقدمونها على الآخرة.

وقد جاءت هذه الآية بما فيها من هذه السورة التشبيهية الرائعة بعد قوله تعالى في ذات السورة { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (23)} [يونس: 23] ، فقد استهلت الآية بنداء الناس كافةً ثمّ جاءت بأسلوب القصر "إنما بغيكم على أنفسكم" قصر موصوف على صفة، قصرت البغي على كونه مضراً بهم وحدهم لا بغيرهم وفي قراءة حفص عن عاصم جاءت (متاعَ الحياة الدنيا) على اعتبار أنها حال من (بغيكم) أو على الظرفية للبغي[52]. ثم جاءت الآية موضع الدراسة هنا مبينةً لقوله (متاعَ الحياة الدنيا) من خلال ضرب المثل بها مستهلاً أيضاً بأسلوب القصر بـ (إنما) تماماً مثل الآية التي سبقتها فهو قصر لحالة الحياة الدنيا على مشابهة حالة الثبات الموصوف في سرعة الانقضاء، فالقصر قصر قلب بُني على تنزيل المخاطبين منزلة من يعتقد عكس هذه الحالة.[53]

والذي يلوح في الذهن وينقدح في الروع عند إجراء أسلوب القصر وتقسيماته على هذه الآية التي جاءت في سورة مكية، كان الخطاب فيها (الآية) والآية التي سبقتها للناس كافة.

وليس كل الناس من يقر بحقيقة أن الدنيا منقضية غير دائمة، لكنه هنا عاملهم معاملة غير المنكر، فجاء النص بـ (إنما) التي هي في الشيء الذي لا ينكره المخاطب ولا يدفعه، والمحل بحسب الظاهر هو للاستثناء بعد النفي، ولكن النص الحكيم عدل عن ذلك خروجاً عن الظاهر وليس خروجاً عن مقتضى الحال الذي هو روح البلاغة وحسّها، فإن الأمر في حال الدنيا وسرعة انقضائها مما لا يُمارى فيه وينبغي أن يُقرّ به كل عاقل، لذا عاملهم النص معاملة المثبت وقصر حال الحياة الدنيا على الوصف المذكور ادعاءً ومبالغةً، فقصر الموصوف على الصفة لا يكون إلا ادعائياً كما تقدم فإنّ للدنيا أوصاف كثيرة وأحوال أخرى غير التي ذكرت ههنا، وكان هذا القصر بحسب حال المخاطبين الظاهر من السياق: قصر قلب لأنهم كانوا يعتقدون عكس ذلك.

وعليه يلوح سر اختيار المقصور عليه هنا وهي صورة حية نابضة ومشهد هام من المشاهد التي حشدتها هذه السورة التي كان جزءٌ هام من شخصيتها يقوم– كما تقدم – على بيان صفات الإله الحق وآثار قدرته المختلفة في الوجود حولهم وشهوده لكل ما يهم البشرية إزاء آلهتهم وزعمائهم وشفعائهم الذين يظنون بهم النفع، فكانت الصورة في المقصور عليه متناغمة ومتساوقة ومنسجمة في السياق الذي جاءت فيه والله أعلم.

ثانياً: قوله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون في سورة

غافر{يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39)} [غافر: 39].

وسورة غافر المكية تعالج قضية الحق والباطل، قضية الإيمان والكفر، قضية الدعوة والتكذيب، وقضية العلو في الأرض والتجبر بغير الحق، وبأس الله الذي يأخذ العالين المتجبرين، وفي ثنايا هذه القضية تلم بموقف المؤمنين المهتدين الطائعين ونصر الله إياهم، واستغفار الملائكة لهم، فالسورة عموماً تبدو وكأنها – كما يقول سيد– مقارع ومطارق تقع على القلب البشري وتؤثر فيه بعنف وهي تعرض مشاهد القيامة ومصارع الغابرين[54]. وقد جاءت هذه الآية على لسان مؤمن آل فرعون الذي تمكن الحق في قلبه ولكنه كتم إيمانه، فقام وألقى بياناً هاماً في الملأ من قومه، يستحق أن يدرس هذا البيان أنموذجاً فذاً في دعوة السلاطين وذوي الشأن إلى كلمة الحق، حيث ظهرت فيه مجموعة من الصفات والأساليب الدعوية حريٌ بالدعاة في كل زمانٍ ومكانٍ أن يتفطنوا لها وأن يعطوها جلّ عنايتهم، فهذا الرجل قد امتاز بعمق الإيمان وقوة العلم، وحكمة البيان، فضلاً عن الفطنة والذكاء والشجاعة والصبر، فقد حاورهم حواراً عقلياً مقنعاً عندما بدأ كلامه معهم قائلاً: { أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28)} [غافر: 28]، فقدم احتمال كذبه على صدقه وفي هذه الحالة قد يصيبهم بعض الذي وعدهم، وهكذا يستمر في منازلته لهم رافعاً من شأنهم {يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29)} [غافر: 29] ، فاستخدم معهم أسلوبي الترغيب والترهيب، ثم ذكرهم بالتاريخ وعبره، مما دلّ على عمق علمه بأخبار ما مضى فقال {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (31) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (34) } [غافر: 30 – 34].

وتستمر جولته معهم بعد تجبر فرعون وطلبه بناء الصرح لعله يبلغ الأسباب فقال لقومه {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40) } [غافر: 38 – 40]، وتظهر شجاعته وذكاءه في قوله هذا إزاء قول فرعون{مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (29)} [غافر: 29]، فهو يتحدى فرعون بكل سلطته وقوته ولا يعبأ بما في يديه ثم يكشف لهم حقيقة الحياة الدنيا بهذا الأسلوب القصري بقوله: {إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ (39)} والمتاع عند الراغب: "انتفاعٌ ممتدُ الوقت... ويقال لما يُنتفع به في البيت متاع... وكل ما يُنتفع به على وجه ما فهو متاع ومتعه..."[55]، فمجيء المقصور عليه هنا يناسب حال الملأ من قومه ، فكل ما بين أيديهم ما هو إلا متاع، وما يعدهم به فرعون ما هو إلا متاع وإنّ من شأن المتاع أن يزول ولو طال إلى حين. ثم عطف عليها الجملة الأخرى المشاركة لها في القصر بالإضافة لما فيها من المؤكدات وهي قوله {وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39)}. فجاء بأسلوب القصر الذي قصر فيه الحياة الدنيا على كونها متاع، فهو قصر موصوف على صفة وهو قصرٌ إضافي ادعائي، وبالنسبة لحال المخاطبين فهو بلا ريب قصر قلب، وقد خرجت منه هذه الأداة عن ظاهر استعمالها في كونها تستعمل مع المثبت غير المنكر، فنجده قد أنزلهم هذه المنزلة طمعاً في استجابتهم من ناحية، وتقريراً للموضوع من ناحية أخرى لا سيما وأنهم إن أقروا ولم ينكروا أن الدنيا متاع فإنهم يجادلون في كون الآخرة قراراً حيث استخدم أسلوب القصر بعد ذلك في قوله {وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39)} فقد جاء القصر بضمير الفصل فضلاً عن التوكيد (بإنّ) والجملة الاسمية، فمقام الشدة والقرع والطرق يناسبه في الظاهر أسلوب الاستثناء بعد النفي ولكنه خرج عن ذلك لما تقدم.

ويُفهم من كلام ابن عاشور أنّ (إنما) جاءت في موضعها مع غير المنكر ولم تخرج عن الظاهر، يقول: "وقد بنى هذه المقدمة على ما كانوا عليه من معرفة أن وراء هذه الحياة حياة أبدية، فيها حقيقة السعادة والشقاء، وفيها الجزاء على الحسنات والسيئات بالنعيم أو العذاب، إذ كانت ديانتهم تثبت حياةً أخرى بعد الحياة الدنيا، ولكنها حرّفت معظم وسائل السعادة والشقاوة، فهذه حقائق مسلمة عندهم على إجمالها... فجملة "إنما هذه الحياة الدنيا متاع" مبينة لجملة "أهدكم سبيل الرشاد""[56].

وسواءً أجاءت "إنما" في موضعها المتعارف عليه أم عاملهم فيها معاملة المثبت خروجاً عن مقتضى الظاهر، فإن القصر يأتي أحياناً لحال المخاطب وأحياناً لحال المتكلم، فإنّ الإيمان قد بلغ في قلب مؤمن آل فرعون ذروته، وحقائق الأمور قد استقرت أمام هذا الرجل واستوت على سوقها فأصبح يتحدث عن الدنيا على أنها متاع من شأنه أن يزول وأنّ الآخرة

هي دار القرار، فقد جاء بأساليب القصر والتوكيد بالقدر الذي استقرت فيه هذه الأمور في قلبه فما عاد يعبأ بالدنيا وزينتها ولا بفرعون وجبروته، بل أصبحت الآخرة هي شغله الشاغل، ولا يغيب عن البال أنّ في استعمال أسلوب القصر بـ (إنما) هنا ما فيه من التعريض بفرعون مرةً أخرى بعد أن عرّض به قبل قليل لمّا قال "أهدكم سبيل الرشاد" وفي هذا ما فيه من جرأة أدبية وشجاعة قلبية أكرم الله بها هذا الرجل.

ثالثاً: قوله: {إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36)} [محمد: 36].

جاءت هذه الآية في سورة محمد المدنية، التي عرفت بسورة القتال، ولا ضير فالقتال هو العنصر البارز فيها في مضمونها وصورها وظلالها، بدأ هذا القتال منذ الآية الأولى فيها وإن كان بأسلوب أدبي{الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (2) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (3)} [محمد: 1 – 3] ، ثم جاء إعلان الحرب صريحاً فيها بقوله: {فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6)} [محمد: 4 – 6] ، ثم تحدثت السورة عن أحوال المؤمنين وأحوال الكافرين في الدنيا والآخرة، فتفرّق بين متاع المؤمن بالطيبات، وتمتع الكافر بلذائذ الأرض كالأنعام، ثم كان لهذه السورة جولة أخرى مع المنافقين يشوبها أيضاً الهجوم والقتال والتهديد{وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (16) } [محمد: 16، 17]. ثم يهددهم بالساعة ويصور هلعهم وجبنهم إذا ووجهوا بالقرآن إذا كلفهم بالقتال{وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (20)} [محمد: 20]، ثم يحثهم على الطاعة والصدق ويرذل اتجاهاتهم ثم يفضحهم في توليهم الشيطان وفي تآمرهم مع اليهود ويهددهم بالعذاب عند الموت.

ثم في الجولة الأخيرة من السورة نعي عن الكافرين من قريش ومن معهم من اليهود{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32)} [محمد: 32] ، وتحذير للمؤمنين أن يصيبهم مثل ما أصاب أعدائهم وذلك إذا التزموا بقواعد عظيمة من طاعة الله ورسوله وعدم الدعوة إلى السَّلْم. ثم تقرير لحقيقة الحياة الدنيا{إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36) إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37)} [محمد: 36، 37]، وتختم السورة بما يشبه التهديد للمسلمين إن هم بخلوا بإنفاق المال والبذل في القتال {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38)} [محمد: 38].

لذا فإنّ هذه الآية مدار البحث جاءت في سياق التهوين من شأن الحياة الدنيا التي قد يصيبهم بعض التضحيات فيها، لكن يوفون أجورهم كاملة في الآخرة.[57]

وقد جاءت الآية بمثابة التعليل لمضمون الآية التي سبقتها[58] {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35)} [محمد: 35]، وقد جاء القصر فيها على هيئة قصر الموصوف على صفتين هما: اللعب واللهو، قصراً إضافياً. واللعب عند الراغب الأصفهاني: الفعل الذي لا يُقصد به المقصد الصحيح[59]. وبهذا فهو يشمل كل فعلٍ لا ينتفع به الإنسان. وأما اللهو عند الراغب فهو – أيضاً– ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه، ويعبر عن كل ما به استمتاع باللهو[60]. والقرآن الكريم يقدمُ اللعب على اللهو في أغلب الأحيان[61] وقدم اللهو على اللعب في موضعين[62]، مما يفتح مجالاً لدراسة أخرى يكون ميدانها تذوق أغراض التقديم والتأخير في المقصور عليهم في القرآن الكريم، لأن من شأن هذا النوع من الدراسات أن يكشف عن روافد هامة من روافد الإعجاز القرآني. وقد قام بهذا عدد من العلماء[63]، فقد ذكر صاحب الفروق اللغوية أن اللعب أعم من اللهو ، فكل لهو لعب وليس كل لعب لهواً، لأن اللعب يكون للتأديب كاللعب بالشطرنج وغيره ولا يقال لذلك لهو، وإنما اللهو لعب لا يعقب نفعاً[64].

وخلاصة ما قدّمه العلماء من آراء تقوم على الاحتكام للسياق في كل مرة، فدلالة السياق محكمة، لذا فإن الغالب تقديم اللعب لأنه أعم وأشمل من اللهو الذي يشاركه في بعض السمات لذا فإن السؤال ينهض عند تقديم اللهو على اللعب في الموضعين المشار إليهما، وسيأتي الحديث عن ذلك في موضعه ضمن مطالب هذه الدراسة.

وقد جاءت أداة القصر "إنما" في موقعها الملائم هنا، دونما حاجة للقول بخروجها عن مقتضاها الذي تعمل به، فالسورة مدنية، وسياق الخطاب كان مع المؤمنين الموقنين بحقيقة الدنيا

وما فيها، فالقصر للإفراد لتقرير حقيقة لا ينكرها ولا يدفعها المؤمنون، وإنما هي تقرير وتوطئة لما يأتي بعدها من قوله{ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36)} [محمد: 36].

وأما سرّ الاقتصار على هاتين الصفتين (اللعب واللهو) في المقصور عليه في هذه السورة فأعتقد أن ذلك لكونهما الصورة الأخرى المقابلة لما عليه هذه السورة التي اتسمت بالجدية والحزم في كل آية من آياتها وقد جاء فيها وصف الكفار فيها {وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12)} [محمد: 12]، وقال عنهم : {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (14)} [محمد: 14].

ثم جاء الحديث في السورة عما أعده للمتقين في الجنة من أنهار وخمر ولبن وعسل مما يجعل الحياة الدنيا أمامه لعباً ولهواً، إضافة إلى ما تلا هذه الآية من حثّ على الإنفاق وتعريض بمن يبخل فكان وصف الحياة الدنيا بهذين الوصفين في موضعه الأليق به والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني: أسلوب القصر بـ (الاستثناء بعد النفي) وأغراضه البيانية

أولاً: قوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (185)} [آل عمران: 185].

وسورة آل عمران التي جاءت فيها هذه الآية سورة مدنية مثّلت قطاعاً حياً من حياة الجماعة المسلمة في المدينة من بعد بدر في السنة الثانية من الهجرة إلى ما بعد غزوة أحد في السنة الثالثة، وما أحاط بهذه الحياة من ملابسات شتى في خلال هذه الفترة الزمنية، فاستحضرت السورة صور هذه الفترة والاشتباكات والملابسات التي أحاطت بها، من أسرار وضمائر ومن أحداث ومشاعر ومن تربص الأعداء ومؤامراتهم، فامتلأت السورة بالتوجيهات والتلقينات غير المقيدة بزمان ومكان تواجه النفس البشرية في كل حين، وكأنها تتنزل اللحظة فالقرآن دستور هذه الأمة في أي جيل ومن أي قبيل[65]. وقد جاءت هذه الآية مدار البحث بعد أن انتهت السورة عن الحديث عن معركة أحد فتناولت أعداء المسلمين في المدينة من يهود ومنافقين{وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (180) لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (181) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (182) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (183) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (184) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (185)} [آل عمران: 180– 185]} ، فقد وجهّت المؤمنين في أثناء ذلك إلى حقيقة القيم الباقية والقيم الزائلة، فالموت نهاية المطاف على هذه الأرض، والجزاء على الأعمال يوم القيامة، والفائز هو من زحزح عن النار وأدخل الجنة ثم قررت بهذا الحصر "وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور".

وقد صوّر الإمام البقاعي (البقاعي،1973) علاقة هذه الآية بالسورة أحسن تصوير فقال: "ولما تقدم في قصة "أحد" رجوع المنافقين وهزيمة بعض المؤمنين مما كان سبب ظفر الكافرين، وعاب سبحانه ذلك عليهم بأنهم هربوا من موجبات السعادة والحياة الأبدية إلى ما لا بدّ منه، وإلى ذلك أشار بقوله" قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم" آل عمران/154، "ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لإلى الله ترجعون" آل عمران/157، "قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت" آل عمران/168، "ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء" آل عمران/169. وغير ذلك مما بكّتهم به في رجوعهم حذر الموت وطلب امتداد العمر مع ما افتتح به من أن موت هذا النبي الكريم وقتله ممكن كما كان من قبله من إخوانه من الرسل... فكان ذلك محققاً أن لا يفلت من الموت خاص ولا عام... صور ذلك الموت بعد أن صار مستحضراً للعيان تصويراً أوجب التصريح به..."[66].

وقد جاء قصر الحياة الدنيا على أنها متاع الغرور، والغرور – كما فسّره الراغب– كلُّ ما يغرُّ الإنسان من مالٍ وجاهٍ وشهوةٍ وشيطان[67]. يقول الإمام الرازي: "واعلم أنّ فساد الدنيا من وجوه: أولها: أنه لو حصل للإنسان جميع مُراداته، لكان همّه وغمّه أزيد من سروره ،لأجل قِصَرِ وقته وقلة الوثوق به وعدم علمه بأنه هل ينتفع به أم لا. وثانيها: أنّ الإنسان كلما كان وجدانه بمُرادات الدنيا أكثر كان حرصه في طلبها أكثر، وكلما كان الحرص أكثر كان تألم القلب بسبب ذلك الحرص أشدّ. وثالثها: أنَّ الإنسان بقدر ما يجد من الدنيا يبقى محروماً عن الآخرة التي هي أعظم السعادات والخيرات، ومتى عرفت هذه الوجوه الثلاثة علمت أن الدنيا متاع الغرور"[68].

وأما عند إجراء تقسيمات القصر على هذه الآية فإننا نجد أنها احتوت على قصرين "إنما توفون أجوركم يوم القيامة"

والثاني وهو المعني في هذه الدراسة "وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور" وهما من قصر الموصوف على الصفة، وهو قصر ادعائي للمبالغة. وظاهر الآية هنا – كما تقدم– أنها توجيه للمؤمنين بدليل أنه ذكر توفيه الأجور والزحزحة عن النار إلى الجنة ولم يذكر الصورة المقابلة، وبهذا تكون طريقة القصر قد جاءت على غير موضعها خروجاً عن مقتضى الظاهر وليس خروجاً عن مقتضى الحال، فالمحل ظاهراً لـ "إنما" لأن المؤمنين لا ينكرون حقيقة أن الدنيا متاع الغرور وإنما جيء بطريقة النفي والإثبات في الحصر ليس لحال المتكلم ولا المخاطب وإنما لتقرير هذه الحقيقة للناس جميعاً بما عرفناه من القرع القوي والجرس الدوي لهذه الطريقة في القصر عن غيرها، أو يمكن أن نقول: إن النص الحكيم عامل المؤمنين المخاطبين معاملة المنكر فجاء لهم بـ (ما) و(إلا) وذلك لما أصابهم يوم أشيع مقتل النبي – صلى الله عليه وسلم– في أحد من هلعٍهم وفزعهم فخاطبهم هناك معاملاً إياهم معاملة المنكر بقوله { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ (144)} [آل عمران: 144]، ففعل هنا ما فعله هناك ويكون القصر للإفراد أو للقلب.

ويمكن أن نفهم أن الآية كانت لخطاب غير المؤمنين وأن في الآية محذوفاً تقديره " ومن زحزح عن الجنة وأدخل النار فقد خسر خسراناً" مثلاً، فتكون طريقة القصر قد جاءت في موضعها مع المنكرين لحقيقة الحياة الدنيا في كونها متاع الغرور. ويكون القصر قصر قلب. ولنا أن نتصور هذا التوجيه إذا لم يغب عنا أن التوجيه البلاغي إنما هو وليد توجيه المعاني لا غير.

وفي مجيء المقصور عليه في هذه السورة (متاع الغرور) مع أنه اقتصر في سورة الرعد على (متاع) فقط، ما يشعر بعلاقة موضوع السورة بهذا الاختيار، فلقد غُرّ المشركون بأنفسهم في يوم بدر وكان النصر للمسلمين كما سجّلت ذلك هذه السورة بإشارةٍ موجزة {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123)} [آل عمران: 123]، وكان ما أصاب المسلمين من قرحٍ في أحد بسبب شيء من هذا الاغترار بالنصر وتعجل عثراته {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (152) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (153) } [آل عمران: 152، 153].

ثانياً: قوله تعالى: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (32)} [الأنعام: 32].

جاءت هذه الآية في سورة الأنعام المكية سادسة النصف الأول من القرآن الكريم. وقد أجاد سيد قطب الحديث عنها بمقدمة قوية بليغة رأيت الكثيرين قد اعتمدوا عليها في حديثهم عن ملامح هذه السورة وميزات شخصيتها وموضوعاتها، فلكل سورة شخصيتها وملامحها ومحورها، وطريقة عرضها لموضوعها الرئيس، وكذلك لها المؤثرات الخاصة المصاحبة لأسلوب العرض فيها إضافة إلى الصور والظلال والمشاهد بل والعبارات والتراكيب اللازمة لها. ويتضح من كلام سيد أن هذه السورة عالجت حق المعالجة قضية وحقيقة الألوهية في مجالاتها المختلفة في الأنفس والآفاق، فالعقيدة هي صبغة الصورة ولونها الخاص بها، وحقيقة الألوهية والعبودية هي القضية الكبرى فيها، والمناسبة الحاضرة في حياة الجماعة المسلمة حينذاك لتطبيق هذه القاعدة من خلال ما تزاوله الجاهلية من حق التحليل والتحريم في الذبائح والمطاعم، وبعض الشعائر، فالسورة إذن عالجت قضية التشريع المنبثق من هذه العقيدة، فحفلت السورة بحشد ضخم من التقريرات والمؤثرات وهي تواجه الجاهلية وأهلها، فتقرير حقيقة الألوهية هي الأساس لكل التشريعات المنبثقة عنها والتي ينقسم عليها الناس بين مؤمن وكافر كانت هي المحور لهذه السورة[69].

وتأتي هذه الآية بعد الحديث عن البعث وإنكار الكفار له ثم عرضهم على العذاب في يوم الحساب{وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29) وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (30) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (31) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (32)} [الأنعام: 29 – 32].

يقول البقاعي: "فلما تأكد أمر البعث غاية التأكد، ولم يبق منه لذي لب وقفه، صرح بما اقتضاه الحال من أمر هذه الدار، فقال منبهاً على خساستها، معجباً منهم في قوة رغبتهم في إيثار لذاتها، معلماً بأنه قد كشف الحال عن أن ما ركنوا إليه خيال، وما كذبوا به حقيقة ثابتة ليس لها زوال، عكس ما كانوا يقولون "وما الحياة الدنيا..."[70]. وبهذا فإن موقع الواو في قوله "وما الحياة الدنيا" إما أن تكون للحال، فعندما قالوا {إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29)} [الأنعام: 29] ، والحال أنكم لو نظرتم حق النظر لوجدتم الحياة الدنيا لعب ولهو وليس فيها شيء باق. أو تكون الواو اعتراضية بالتذييل لحكاية حالهم في الآخرة. فذيل ذلك بخطاب المؤمنين تعريفاً بقيمة زخارف

الدنيا وتبشيراً لهم بأن الآخرة هي دار الخير للمؤمنين [71].

وأمّا بالنسبة لصورة القصر في الآية فإنّه جاء بهيئة قصر الموصوف على الصفة وهو قصر ادعائي كما لا يخفى، فإنّ الحياة تشتمل على أحوال أخرى كثيرة [72].

وأمّا حال القصر بالنسبة للمخاطبين فهو قصر قلب –كما يبدو – حيث صرّحوا بأنّ الحياة الحقيقية هي الحياة الدنيا وأنّهم لا يبعثون، فجاء القصر يقلب لهم هذه الحقيقة رأساً على عقب ويقرر أن الحياة الدنيا لعب ولهو وأن الآخرة خير للمتقين، وبهذا فإنّ طريقة القصر بالاستثناء بعد النفي جاءت في موضعها اللائق بها، فإنّهم ينكرون هذه الحقيقة ولا يقرون بها، لذا جاءت بهذا القصر الصارخ ذي النبرة العالية القوية بأنّ الدنيا هذا حالها، حيث اقتصر على ذكر اللعب واللهو على اعتبارها أصول اللذة فيها، يقول الفخر الرازي: "واعلم أنّ تسمية هذه الحياة باللعب واللهو فيه وجوه:

الأول: أن مدة اللهو واللعب قليلة سريعة الانقضاء والزوال، ومدة هذه الحياة كذلك.

الثاني: أن اللعب واللهو لا بدّ وأن ينساقا في أكثر الأمر إلى شيء من المكاره، ولذات الدنيا كذلك.

الثالث: أن اللعب واللهو إنما يحصل عند الاغترار بظواهر الأمور، وأما عند التأمل التام والكشف عن حقائق الأمور لا يبقى اللعب واللهو أصلاً، وكذا اللهو واللعب، فإنهما لا يصلحان إلا للصبيان والجهّال المغفلين، أما العقلاء والحصفاء فقلما يحصل لهم خوض في اللعب واللهو. فكذلك الالتذاذ بطيبات الدنيا والانتفاع بخيراتها لا يحصل إلا للمغفلين الجاهلين بحقائق الأمور.

الرابع: أن اللعب واللهو ليس لهما عاقبة محمودة. فثبت بمجموع هذه الوجوه أن اللذات والأحوال الدنيوية لعب ولهو وليس لهما حقيقة معتبرة" [73].

ثالثاً: قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38)} [التوبة: 38] .

وسورة التوبة التي وردت فيها هذه الآية سورة مدنية من أواخر ما نزل من القرآن، حيث تضمنت أحكاماً نهائية في العلاقات بين الأمة الإسلامية وسائر الأمم في الأرض، كما تضمنت تصنيف المجتمع المسلم ذاته، وتحديد قيمه ومقاماته، وأوضاع كل طائفة فيه وكل طبقة من طبقاته، ووصف واقع هذا المجتمع بجملته وواقع كل طائفة منه وكل طبقة وصفاً دقيقاً مبيناً.[74]

وقد جاءت هذه الآية واللاتي يلينها في مقطع استنفاري مهيب يُرجح أن يكون عند مجيء الأمر بالنفير العام لغزوة تبوك[75].

وقد بدأت هذه الآية بخطاب الفتنة المؤمنة بهذا الاستفهام الإنكاري المتضمن معنى العتاب والتثريب والتوبيخ، وجاءت كلمة (اثّاقلتم) وفيها مع وجوه الإدغام المخفف لجرسها ثقلٌ بالنطق وثقلٌ بالمعنى ولكن هذا الثقل ليس لشيء اعترى فصاحة الكلمة بل ثقل المعاني والجواذب التي تضمنتها هذه اللفظة.

وجاءت هذه الآية بهذا الأسلوب الحصري لمتاع الحياة الدنيا إزاء الأخروي ولعلها تكون من أواخر الآيات التي قصرت وصف الحياة الدنيا ومتاعها نزولاً في القرآن الكريم، قصرت متاع الحياة الدنيا إزاء ما في الآخرة على وصف القلة، فهو قصر موصوف على صفة، وهو قصر ادعائي بلا ريب، وقد جاء أسلوب القصر بالاستثناء بعد النفي لما يحمله من صلصلة وقرقعة وضجيج عالٍ – كما تقدم في التمهيد – متلائماً مع جو المقارعة والجلجلة في هذه السورة التي وضعت السيف بين المسلمين وأعدائهم.

ولكن السؤال الذي ينهض ههنا: لماذا عومل المؤمنون معاملة المنكر فجيء لهم بطريقة القصر التي تأتي في حقيقتها لمن ينكر الأمر ويدفعه مع أننا نعلم من حال المخاطبين أنهم لا ينكرون حقيقة متاع الحياة الدنيا إزاء الآخرة؟ والذي يلوح – والله أعلم– أن الآية كانت عتاباً عليهم أو على بعضهم ممن تغيب عن غزوة تبوك لأعذار واهية، فكان هذا الاستفهام الإنكاري التوبيخي مع دلالة التركيب في قوله "أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة" هو لقرع النفوس وتهيئتها للنفير العام وتصويب القيم ووضعها في معيارها الصحيح، فشبه حالهم هذه وهم يتأخرون في تلبية نداء الجهاد بحال من أنكر وجوبه ظاناً أن متاع الحياة الدنيا دائمٌ لا يزول، وعلى هذا يكون من قصر القلب أو الإفراد بحسب المعاني المحتملة.

والآية هنا اختلفت عن مثيلاتها من الآيات موضع الدراسة في أنها جعلت متاع الحياة الدنيا قليلاً ولم تنفه بالمرة: فللدنيا متاع لا يُنكر ولذات يمكن تذوقها، ولكنها لا شيء إذا ما قورنت بما عند الله عز وجل، واعتقد أن سر اختيار المقصور عليه (القله) هنا يتلاءم ويتناغم مع لفظة (اثّاقلتم) ومع (من) البدلية في قوله: "أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة" فإن هذا التثاقل عن الجهاد والرضا بالحياة الدنيا بدلاً من الآخرة كان لمظنة المتاع الزائل فما عند الله من متاع كثير في مقابل القليل ودائم في مقابل الزائل والله تعالى أعلم.

رابعاً: قوله تعالى: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ

(26)} [الرعد: 26].

هذه الآية في سورة الرعد المكية التي أخذت على عاتقها بيان نعم الله عز وجل في الأنفس والآفاق، ولنا أن نقول: إنها سورة المنافع، فقد عرضت لآيات الله في السماوات المرفوعة بغير عمد وفي الشمس والقمر كلٌ يجري لأجلٍ مسمّى، وفي الليل يغشاه النهار، وفي الأرض الممدودة وما فيها من رواسٍ ثابتة وأنهار جارية وجنات وزروع ونخيل مختلف الأشكال، والطعوم والألوان، وفي البرق يخيف ويُطمع، والرعد يسبح ويحمد، والملائكة تخاف وتخشع، والصواعق يصيب بها من يشاء[76].

وقد جاءت هذه الآية في سياق الموازنة بين من يعلم أن ما أنزل إليه من ربه هو الحق بمن هو أعمى، فهما لا يستويان إنما يتذكر أولو الألباب، ثم شرعت في الحديث عن صفات المؤمنين من أنهم يوفون بالعهود ولا ينقضونها، ويصلون الرحم، ويخشون ربهم ويخافون سوء العذاب، ويصبرون ابتغاء وجه ربهم ويقيمون الصلاة وينفقون سراً وعلانية، ويدرءون سيئاتهم بالحسنات، فأولئك ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم لهم جنات عدن فنعم عقبى الدار ثم عقب ذلك بوصفٍ آخر وصورة مقابلة لهذه الصورة وهي في قوله: {وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (25) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (26)} [الرعد: 25، 26].

يقول ابن عاشور عن علاقة هذه الآية بالتي سبقت: "هذه الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً جواباً عما يهجس في نفوس السامعين من المؤمنين والكافرين من سماع قوله "أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار" المفيد أنهم مغضوب عليهم، فأما المؤمنون فيقولون: كيف بسط الله لهم الرزق في الدنيا فازدادوا به طغياناً وكفراً وهلاّ عذبهم في الدنيا بالخصاصة كما قدر تعذيبهم في الآخرة، وأما الكافرون فيسخرون من الوعيد مزدهين بما لهم من نعمة فأجيب الفريقان بأن الله يشاء بسط الرزق لبعض عباده ونقصه لبعض آخر لحكمة متصلة بأسباب العيش في الدنيا، ولذلك اتصال بحال الكرامة عنده في الآخرة"[77].

ويبدو – والله أعلم– أن موضع القصر في الآية جاء رداً على أولئك الذين فرحوا بالحياة الدنيا واغتروا بها وبلذاتها. وأن الواو في قوله: "وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل" هي واو الحال، أي: والحال أن ما أسروا به في جنب ما أعرضوا عنه نزر النفع سريع النفاد كما قال الألوسي.[78]

وعند إجراء القصر على هذه الجملة التي بين أيدينا نجد أنها من قصر الموصوف على الصفة، وهو قصر ادعائي، فقد وصف الله تعالى الدنيا بصفات كثيرة، وهو قصر قلب لما يعتقدونه في الدنيا ولما فرحوا به من أحوالها، وقد جاءت طريقة القصر بالاستثناء بعد النفي في محلها مع أولئك الذين لعنهم الله وتوعدهم بسوء الدار.

وفي ظنّي – والله أعلم– أنّ مجيء المقصور عليه هنا بلفظ (متاع) التي تشمل كل ما يُتمتع به مما يُظن بقاءه، يتلاءم مع حال المؤمنين في الجنة وخطاب الملائكة لهم{سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (24)} [الرعد: 24]، فشتان بين المتاع السريع والعاقبة الدائمة، وكذلك يتلاءم هذا الاختيار مع فرحهم في الحياة الدنيا الناشئ عن عماهم عن إدراك الحقائق فقد قال سبحانه وتعالى أول هذا السياق{أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19)} [الرعد: 19].

ويتناسب كذلك مع هذا الحشد الضخم لآلاء الله في الكون في الأنفس والآفاق بما يحقق لهم المتاع في الدنيا المنقضية ويهيئ لهم السعادة في الآخرة الباقية والله تعالى أعلم.

خامساً: قوله تعالى: {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (64)} [العنكبوت: 64].

الآية مدار البحث هنا جاءت في سورة العنكبوت المكية، وقد أبرزت هذه السورة موضوعها ومحورها من الآيات الأولى فيها {الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3)} [العنكبوت: 1– 3]، فليس الإيمان كلمة تُقال على اللسان، وإنما هو الصبر على المكاره والتكاليف في طريق هذه الكلمة المحفوفة بالمكاره والتكاليف. ولذلك مضت السورة في استعراض صبر وتضحيات كوكبة من الأنبياء: نوح وإبراهيم ولوط وشعيب وقصص عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان، ثم عرضت للنوازل التي نزلت بهم{فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40)} [العنكبوت: 40] ، وضرب الله تعالى مثلاً بتلك القوى بحياة العنكبوت التي اتخذت بيتاً. فهو تصوير يكشف وهنها وتفاهتها. ثم يوحد بين تلك الدعوات السابقة ودعوة محمد – صلى الله عليه وسلم– ويتحدث السياق عن المشركين وكيف استقبلوا الكتاب وكيف طلبوا الخوارق واستعجلوا بالعذاب وفي أثناء هذا كله يدعو المؤمنين إلى الهجرة فراراً بدينهم من الفتنة. وتختم السورة بتمجيد المجاهدين في الله وطمأنتهم[79] {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ

اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)} [العنكبوت: 69]، وفي المقطع الأخير من السورة جاءت هذه الآية مدار البحث في سياق إقرار المشركين ببعض مظاهر قدرة الله في الكون {وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (60) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (61) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (62) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (63) وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (64)} [العنكبوت: 60 – 64]. فهذه الحياة الدنيا في عمومها ليست إلا لهواً ولعباً إذا أغفلنا الآخرة، وأما الحياة الأخرى فهي الحياة الحقيقية الفائضة بالحيوية والفاعلية، حيث أكدت حقيقة الآخرة في فاصلة الآية بـ (إن) والجملة الاسمية واللام المزحلقة، وحظيت بأسلوبين من القصر في الضمير المنفصل وفي تعريف المبتدأ والخبر. وقد تقدم في المقصور عليه هنا ذكر (اللهو) على (اللعب). علل ذلك الخطيب الإسكافي قائلاً: "لأن الأزمنة التي يقصرها اللهو أكثر من الأزمنة التي يقصرها اللعب لأن التشاغل به أكثر، فلما كانت معظم ما يستقصر وجب تقديم ما يكثر على ما هو دونه في الكثرة لأن ذلك آخذ في التشبيه وأبلغ في وصف المشبه، ولا خلاف أن الناس أزمنتهم المشغولة باللهو أكثر من أزمنتهم المشغولة باللعب، وأن طيبها لهم يخيل قصرها إليهم ويتفاوت طيبها على حسب تفاوت ميل النفس إلى محبوبها"[80].

وأعتقد أن هذا التقديم للهو هنا له ما يسوغه في موضوع السورة وشخصيتها، فهذه السورة بدأت بهذا الاستفهام الإنكاري،{أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2)} [العنكبوت: 2]، فلا مجال للهو ولا للدعة والراحة، فالدنيا دار اختبار وبلاء وجهاد، فقال بعدها {وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ (6)} [العنكبوت: 6]، ثم سبق هذه الآية موضع الدراسة مباشرة قوله {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (63)} [العنكبوت: 63]، فهم يقرون بتوحيد الربوبية، ولكنهم يرفضون أن تكون الحاكمية لله وحده، وكذلك حق التشريع، وقد ألمح الإمام البقاعي إلى مثل هذا بقوله: "ولما كان مقصود السورة الحث على الجهاد والنهي عن المنكر، وكان في معرض سلب العقل عنهم ، قدّم اللهو لأن الإعراض عنه يحسم مادة الشر، فإنه الباعث عليه فقال: (إلا لهو) أي شيء يُلهي عما ينفع، (ولعب) يشتغل به صبيان العقول وكل غافل وجهول، فإن اللهو كل شيء من شأنه أن يعجب النفس كالغناء والزينة من المال والنساء وغيره، فيحصل به فرح وزيادة وسرور، فيكون سبباً للغفلة والذهول والنسيان والشغل عن استعمال العقل في إتباع ما يُنجي في الآخرة فينشأ عنه الضلال، على ما أشارت إليه آية لقمان {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ (6)} [لقمان: 6]"[81].

وأما إجراء القصر هنا على هذه الآية فقد جاء على صورة قصر الموصوف على الصفة وهو ادعائي طبعاً، وجاء قصر القلب لأولئك المعاندين، وكانت طريقة القصر بموقعها الأليق بها مع المنكرين، ولا شك أن ما أشارت إليه السورة الكريمة من كفر تلك الأقوام وعدم اتعاظهم بمن سبقهم، بل وباستعجالهم العذاب وتعطيلهم لأدوات المعرفة وعدم إدراكهم لقضية الفتنة والبلاء قد هيأ لهذا المقصور عليه أن يكون كلمتي اللهو واللعب مقدماً فيها اللهو لما تقدم من أسباب والله تعالى أعلم.

سادساً: قوله تعالى: {وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35)} [الزخرف: 35] .

والحق أن الذي يوضح دخول هذه الآية في مجال هذا البحث الآيات التي سبقتها {وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (34)} [الزخرف: 33،34]} [الزخرف: 33]، فإن الله تعالى يعرض الحياة الدنيا ومتاعها هنا بما يكشف عن حقيقتها فلا يغترّ بها الناس ولا يقعون فيها، ولولا أن يفتتن الناس لجعل الله تعالى للكافرين في الدنيا قصوراً سقفها من فضة وسلالمها من ذهب ولها أبواب كثيرة ومتكأً وزخارف ينبهرون بها، وما هذا كله إلا من متاع الدنيا الزائل المغرر بأصحابه. ولكن المتقين يعلمون أن ذلك فتنة فلا يغترون به ويؤثرون لذات الأرواح على مسرات الأشباح، ولا يهبون نفائس الأوقات لخسائس الشهوات فإنّ لأولئك ما أرادوه في الجنة المؤخرة وليس في الدنيا العاجلة.

وقد جاء هذا المقطع من سورة الزخرف المكية متفقاً مع موضوعها وشخصيتها، فقد رأى الأستاذ سيد قطب –رحمه الله– أن هذه السورة عرضت جانباً مما كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب وعقبات، ومن جدل واعتراضات، وفيها تصحيح لانحرافات عقدية خطيرة وردّ للنفوس إلى الفطرة وإلى الحقائق الأولى.

وقد واجهت السورة المشركين بمنطقهم هم، وحاجتهم بمنطق الفطرة الواضح، وهدمت الكثير من أساطيرهم {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (16) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17) أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي

الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (19)} [الزخرف: 15- 19]. وفي هذه السورة كشف الحق التوائهم في هذا الجدل. وبرأ عيسى –عليه السلام– مما ارتكبه أتباعه من بعده، وبين لهم حقيقة ملة إبراهيم وأنها ملة التوحيد الخالص، ورد عليهم بعض شبهاتهم، فاقتضى المقام المجيء بحلقه من قصة موسى –عليه السلام– مع فرعون تظهر اغترار فرعون بالقيم الزائفة، وهكذا فالسورة كلها تدور حول تلك الأساطير الوثنية والانحرافات العقدية وحول القيم الصحيحة والقيم الزائفة وتعالجها بدقة ووضوح[82].

وبذا فإن هذه الآية موضع الدراسة تمثل بوضوح شخصية هذه السورة بل وتوجز عنوانها بمنتهى الدقة والإيجاز. وقد جاء أسلوب الاستثناء بعد النفي بـ (إن) و(لما) على خلاف الآيات الأخرى موضع الدراسة في هذا المطلب.

يقول ابن هشام الأنصاري عن (إن) أنها ترد على أربعة أوجه: شرطية ونافية ومخففة من الثقيلة وزائدة[83]. وبين ابن هشام أنها تدخل على الجملة الاسمية والجملة الفعلية ويأتي بعدها في الغالب (إلا) أو (لمّا) المشددة[84]. وقال عن (لمّا) المشددة في موضع آخر أنها تأتي على ثلاثة أوجه: مختصة بالمضارع نفياً وجزماً وقلباً، وتختص بالماضي فتقتضي جملتين فتقتضي وجود ثانيتهما عند وجود أولاهما نحو: لما جاءني أكرمته، ويقال فيها حرف وجود لوجود. والثالث: أن تكون حرف استثناء فتدخل على الجملة الاسمية نحو{إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4)} [الطارق: 4]، فيمن شدد الميم. وعلى الماضي لفظاً لا معنىً نحو: أَنشُدُكَ الله لمّا فعلت. أي ما أسألك إلا فعلك[85].

ومما يجب الانتباه له هنا أن أسلوب القصر يأتي في هذه الآية على أحد وجوه قرائتها فقط، فقد صح في قراءة (لمّا) وجهان كما ذكر ذلك ابن الجزري: الوجه الأول: تشديد الميم وهي قراءة عاصم وحمزة وابن جمّاز. والوجه الثاني: تخفيفها وهي قراءة الباقين[86]، فعلى قراءة تشديد (لمّا) تكون بمعنى (إلا) وتكون (إن) نافية، وعلى قراءة تخفيفها تكون (لما) اللام فيها الفارقة، و(ما) مزيدة للتوكيد وتكون (إن) في (إن كل ذلك) مخففة من الثقيلة[87]. وتكون كلمة (متاع) خبر على كلا القراءتين.

وبناءً على ما تقدم فإنّ القصر يأتي على قراءتنا هنا بتشديد (لمّا) وصورة القصر في الآية تكون كالتالي: إن كلَّ ما تقدم من الحديث عن السقف من الفضة والمعا رج من الذهب والأبواب والسرر والزخرف ما هو إلا متاع الحياة الدنيا زائلٌ بزوالها، منقضٍ بانقضائها، وأما النعيم الحقيقي في الآخرة فهو للمتقين.

وأما إجراؤه فهو: قصر موصوف على صفة، وهو ادعائي بالطبع، وقد جاءت طريقة القصر بالاستثناء بعد النفي مع المنكرين المدافعين في موقعها بالنسبة لمكية السورة من ناحية ولسياقها الخاص من ناحية أخرى، فقد اقتضت سنة الله أن لا يجعل الناس جميعاً مؤمنين أو كافرين، ولو أرادهم جميعاً كافرين لأعطاهم كل هذا الذي ذُكر ولكنه في الحقيقة ليس إلا متاعاً زائلاً. لذا فإن الأنسب أيضاً أن يكون نوع القصر بالنسبة للمخاطبين قصر قلب، وربما كان مجيء المقصور عليه (متاع الحياة الدنيا) هو الملائم تماماً لاسم السورة (الزخرف) ولموضوعاتها وسباقاتها وسياقاتها، وقد سبقها ببعض الآيات قوله {بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (29)} [الزخرف: 29]، وسبقها قوله {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32)} [الزخرف: 32] ، ثم إنه جاء في نفس السورة ما أعده الله للمؤمنين في الجنة من نعيم حقيقي مقابل هذا المتاع، فقال تعالى: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (71) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (73)} [الزخرف: 70- 73] ، ثم جاء في أواخر السورة ما فيه من تهديد ووعيد لهم فقال تعالى: {فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83)} [الزخرف: 83]. واللعب هو جزء من هذا المتاع فجاء المقصور عليه إذن في مكانه الأليق به والله تعالى أعلم.

المطلب الثالث: الجمع بين الأسلوبين وأغراضه البيانية

هنالك آية واحدة في كتاب الله جمعت هذين الأسلوبين مدار البحث في وصف الحياة الدنيا ومتاعها وهذه الآية في سورة الحديد المدنية وهي: قوله تعالى: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (20)} [الحديد: 20].

وموضوع هذه السورة في نظر سيد قطب يقوم على دعوة الجماعة الإسلامية كي تحقق في ذاتها حقيقة إيمانها، وهي الحقيقة التي تستحيل بها النفوس ربانية بينما تعيش على الأرض موازينها هي موازين الله، والقيم التي تعتز بها وتسابق

إليها هي القيم التي تثقل في هذه الموازين، وعلى أساس هذه الحقيقة تدعو السورة الجماعة الإسلامية إلى البذل في سبيل الله، بذل النفس وبذل المال{آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (7)} [الحديد: 7، وقوله: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (11)} [الحديد: 10، 11]. وحذرت السورة أيضاً من البخل{الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24)} [الحديد: 24]. وعلى أساس هذه الحقيقة الكبيرة تدعو السورة أيضاً الجماعة الإسلامية إلى الخشوع لذكر الله وللحق الذي أنزله الله ليجيء البذل ثمرة لهذا الخشوع المنبعث من الحقيقة الإيمانية الكبرى {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (16)} [الحديد: 16].

ولمّا كان مدار السورة على تحقيق حقيقة الإيمان في القلب، وما ينبثق عن هذه الحقيقة من خشوع وتقوى، ومن خلوص وتجرد، وبذل وتضحية. فقد سارت في إقرار هذه الحقيقة في النفوس التي كانت تواجهها على نسق مؤثر، أشبه ما يكون بنسق السور المكية[88].

وقد جاءت هذه الآية مدار البحث تعقيباً على دعوة الإيمان والبذل، ودعوة الفداء والتضحية، تعقيباً يصور الحياة كلها بصورة هزيلة زهيدة تهوّن من شأنها وترفع النفوس عنها. فقد جاءت بعد قوله تعالى: {إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (18) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (19)} [الحديد: 18،19].

يقول الإمام البقاعي: "ولمّا ذكر سبحانه حال الفريقين، الأشقياء والسعداء، فتقرر بذلك أمر الآخرة، فعلموا أنها الحيوان الذي لا انقضاء له من إكرام أو هوان، وكان الموجب للهوان فيها إنما هو الإقبال على الدنيا لحضورها ونسيان الآخرة لغيابها، قال منتجاً مما مضى مبيناً لحقيقة ما يرغب فيه المكلف المركب على الشهوة من العاجلة بما نزهه فيه، مصدراً له بما يوجب غاية اليقظة والحضور اعلموا..."[89].

وقد حوت هذه الآية أسلوبي القصر مدار الدراسة، فقد جاء القصر بـ "إنما" لوصف الحياة الدنيا بخمسة أوصاف: اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر في الأموال والأولاد، ثم ضربت مثالاً بحال الدنيا بالغيث الذي أعجب الكفار نباته يقول الزمخشري: "شبه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتهل، وأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات، فبعث عليه العاهة فهاج واصفر وصار حطاماً عقوبة لهم على جحودهم، كما فعل بأصحاب الجنة وصاحب الجنتين"[90]. ثم أعقب هذا المثل بأسلوب الحصر بالاستثناء بعد النفي في حديثه عن الحياة الدنيا بأنها متاع الغرور.

ويلاحظ في هذا المقام عدة أمور:

أولاً: لقد جاء المقصور عليه في هذه الآية بستة أوصاف، خمسة مع إنما وواحد مع ما وإلا. تقدم بعضها في الآيات المتقدمة في هذه الدراسة، فقد جاء في سورة الأنعام والعنكبوت ومحمد وصفها بأنها لعب ولهو، وفي الرعد وغافر بأنها متاع، وفي آل عمران متاع الغرور، واختصت الآية هنا بأوصاف مزيدة، وإن كانت متضمنة في المتاع وهي: الزينة والتفاخر في الأولاد والتكاثر في الأموال، وإن كان الأخيران جزءاً من هذه الزينة، وأعتقد – والله أعلم– أن شخصية السورة هنا وموضوعاتها اقتضت ذلك من خلال غرسها لحقيقة الإيمان في النفوس ودعوتها المستمرة للإنفاق والبذل في سبيل الله، فكان لا بدّ من التركيز على ضرب المثل بمتاع الدنيا وزينتها الزائلة حتى تستقر هذه الحقيقة في النفوس وتصبح جزءاً منها.

ثانياً: ضرب المثل في هذه الآية بالدنيا تقدم ما يشبهه في سورة يونس في قوله تعالى: {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24)} [يونس: 24]، ولكنه جاء هنا موجزاً متلائماً مع طبيعة السورة وخصوصيتها، فكان التركيز هنا على الكافر الذي أعجبه النبات ولم يتحدث عن أن الأرض أخذت زخرفها وازّينت وأن أهلها ظنوا أنهم قادرون عليها وأنها أصبحت حصيداً كأن لم تغن بالأمس لذا قال هناك بعد عرض هذا المثل {كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}. فالإيجاز والجدة والحزم بدت في سورة الحديد أكثر من ذي قبل.

ثالثاً: جاء القصر هنا قصر الموصوف على الصفة في كلا الأسلوبين المستخدمين في بداية الآية وفاصلتها، وإن كان القصر في فاصلتها قد عمّ القصر الذي جاء في أولها، فالدنيا بأوصافها الخمسة التي قصرت عليها ما هي في نهاية المطاف إلا متاع الغرور. وبذا تكامل القصران في أداء الغرض الذي

سيقا من أجله.

رابعاً: السورة مدنية، والخطاب فيها للمؤمنين، لذا نتصور أن القصر بـ (إنما) جاء في مطلع الآية في موضعه مع من لا ينكر هذه الحقائق ولا يدفعها، وجاء سلساً دونما قرقعة أو جلبة كما هو شأن إنما، وحوى من التعريض ما حواه في أولئك المغرورين بحالها المبهورين في متاعها الزائل، ثم جاء القصر الأخير الموجز الشديد القوي ذو الجلبة العالية بأسلوب الاستثناء بعد النفي الذي يستعمل مع المنكر أو من ينزل منزلته أو لأغراض بيانية أخرى تقدم الحديث عناه في المطلب التمهيدي. حيث يمكن أن نقول إن الجمع بين أسلوبي القصر مع المثبت والمنكر جاء لأن الآية جمعت بين صنفين من العذاب لصنفين من الناس{وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ} [الحديد: 20]، فكان كل أسلوب قصري متلائماً مع الفئة الملائمة له، وهذا يكفينا عناء البحث عن أسباب أخرى إذا ما قنعنا به، ولكن الذي يبدو – والله أعلم– أن الآية بدأت بداية رقيقة سلسه في وصف الحياة الدنيا بهذه الأوصاف الخمسة ثم عقّبت ذلك بهذا المثال الموجز ثم جاء الحديث عن الآخرة وما يكتنفها من عذاب ومغفرة، فكانت الفاصلة بعد ذلك في وصف الدنيا بغاية الإيجاز والحزم والجلبة القوية وهذا يختص بهذا الأسلوب القصري دون غيره وذلك إيذاناً وتمهيداً لما يعقبها من أمرٍ بقوله تعالى{سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (21)} [الحديد: 21]، فكان لكل أسلوب ميدانه الأليق به والله تعالى أعلم.

الخاتمة

بحمد الله وفضله توصلت الدراسة إلى هذه النتائج:

1. يأتي أسلوب القصر بـ (إنما) في الشيء الذي لا ينكره المخاطب ولا يدفعه، أو لمن يُنزل هذه المنزلة أو لأغراض بيانية أخرى يقتضيها المقام، ويأتي القصر بهذا الأسلوب دفعةً واحدة، ويقصد بهذا الأسلوب أحياناً التعريض.
2. يأتي أسلوب القصر بالاستثناء بعد النفي في الشيء الذي ينكره المخاطب ويدفعه، أو لمن يُنزل هذه المنزلة أو لأغراض بيانية أخرى يقتضيها المقام.
3. جاء أسلوبا القصر في القرآن المكي والمدني على حدٍّ سواء في وصف الحياة الدنيا ومتاعها.
4. جاء أسلوب القصر بـ "إنما" في وصف الحياة الدنيا ومتاعها في ثلاث آيات في كتاب الله تعالى في ثلاث سور هي: يونس /24، غافر /39، محمد /36.
5. جاء أسلوب القصر بالاستثناء بعد النفي في وصف الحياة الدنيا ومتاعها في ست آيات في كتاب الله تعالى في ست سور هي : آل عمران /185، الأنعام /32، التوبة /38، الرعد /26، العنكبوت /64، الزخرف /35.
6. جاء أسلوبا القصر معاً في آية واحدة في سورة الحديد /20، حيث استهلت الآية بالقصر بـ (إنما) وختمت بالقصر بالاستثناء بعد النفي في وصف الحياة الدنيا، وهذا الجمع ناشئ عن طبيعة شخصية السورة وموضوعاتها التي ساقتها.
7. جاء كل أسلوب قصري متلائماً ومتساوقاً ومنسجماً مع موضعه الذي جاء فيه بحيث لا يصلح الأسلوب الآخر أن يقوم مقامه.
8. جاء كل أسلوب قصري في كل المواضع في القرآن الكريم بصورة قصر الموصوف على الصفة، وهو عند البلاغيين قصر ادعائي على سبيل المبالغة، لأنه يوجد للدنيا ومتاعها أوصاف كثيرة ومتنوعة ويصعب حصرها في أوصاف محددة.
9. جاء المقصور عليه في أسلوبي القصر تارةً صفةً واحدة، وتارةً صفتان ، وتارةً خمسة أوصاف.
10. اقترن اللعب مع اللهو في الصفات المقصور عليها ضمن أسلوبي القصر المتقدمين في أربع مواضع تقدم اللعب فيها على اللهو في ثلاث مواضع هي: الأنعام /32، ومحمد /36، والحديد /20، وتقدم اللهو فيها في موضعٍ قصري واحد في سورة العنكبوت /64. وذلك لأغراض بيانية اقتضاها المقام في كل موضع.
11. جاء القصر في كل المواضع تقريباً على هيئة التشبيه البليغ، وهو التشبيه الذي تحذف فيه الأداة ووجه الشبه، وذلك من خلال تشبيه الحياة الدنيا بالمتاع أو باللعب واللهو أو بأوصاف أخرى أو من خلال تشبيه متاعها بأنّه قليل، وجاء في سورة يونس تشبيه مثل الحياة الدنيا بصورة منتزعة من عدة أشياء تعورف عليها عند البلاغيين على أنها من صور التشبيه التمثيلي. وجاء في سورة الحديد هذا التشبيه التمثيلي بعد ذكر الأوصاف الخمسة المقصور عليها من خلال ضرب المثل بالحياة الدنيا وزينتها، ومعروفٌ أنّ لهذا التشبيه أثره البالغ في تقرير المعاني وتصوير الحقائق.
12. جاء في بعض مواضع القصر في الآيات التي ورد فيها الحديث عن الآخرة وحقيقتها أو الإيمان والتقوى. ففي سورة الأنعام {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (32)} [الأنعام: 32] وفي العنكبوت {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ

الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (64)} [العنكبوت: 64] والزخرف {وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35)} [الزخرف: 35] ومحمد{إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36)} [محمد: 36]، حيث اختصت هذه المواضع بذكر اللعب واللهو وبعض مظاهر الزخرف واللهو، فكانت الفاصلة لهذه الآيات ملائمة لتذييلها بحقيقة الآخرة والله تعالى أعلم.

والحمد لله من قبل ومن بعد

الهوامش

(1) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ط1، 2/ص796.

(2) الفاروقي، كشاف اصطلاحات الفنون، ط1، 1/ص402، وانظر:3/ص517.

(3) انظر: أبو موسى، دلالة التراكيب، دراسة بلاغية، ط3، ص45.

(4) انظر: أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، ط2، ص(326-329)، وانظر: ص(389-390).

(5) انظر: الحطاب، أسلوب الحصر في القرآن الكريم عند النحويين والبلاغيين (مخطوط)، ص20.

(6) الفراهيدي كتاب العين، ط1، باب القاف، 3/ص394.

(7) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 5/ص96. وانظر: الزمخشري أساس البلاغة، ط1، ص512.

(8) انظر: الأزهري معجم تهذيب اللغة، ط1، 3/ ص(2972-2973).

(9) انظر: ابن منظور، مادة (قصر)، 5/ ص95 وما بعدها.

(10) السكاكي، مفتاح العلوم، ط1، ص400.

(11) السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، ط1، 1/ص393.

(12) الإتقان في علوم القرآن، 2/ص796.

(13) انظر: أبو موسى، دلالة التراكيب، ص47 وما بعدها، وص102.

(14) انظر: عباس، البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، ط9، ص(373-374).

(15) انظر: الميداني، البلاغة العربية: أسسها وعلومها وفنونها، ط1، 1/ ص(526-527).

(16) انظر: المفتاح، ص400 وما بعدها.

(17) انظر: القزويني، تلخيص المفتاح، ط1، ص93.

(18) انظر: عروس الأفراح للسبكي، 1/ص393 وما بعدها.

(19) انظر: التفتازاني، المطول شرح تلخيص المفتاح ومعه حاشية العلامة السيد الشريف الجرجاني، ط1، ص40 وما بعدها.

(20) انظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ط1، ص(214-232).

(21) الصعيدي، البلاغة العالية (علم المعاني)، ط2، ص (49-50).

(22) الجرجاني، الشريف، حاشية الشريف الجرجاني على المطول للتفتازاني، ط1، ص375.

(23) انظر: التفتازاني، المطول، ص(378-379).

(24) انظر: المصدر السابق، ص375.

(25) انظر: المصدر السابق، ص(378-379).

(26) انظر: دلالة التراكيب، ص57.

(27) انظر: القزويني، تلخيص المفتاح، ص93.

(28) دلالة التراكيب، ص(62-63).

(29) انظر: دلائل الإعجاز، ص87-90.

(30) انظر: المصدر السابق، ص214-232.

(31) انظر: المصدر السابق، ص219 و228.

(32) انظر: المصدر السابق، ص220-221.

(33) انظر: مفتاح العلوم، ص400-404.

(34) انظر: عروس الأفراح، 1/ ص393-407.

(35) انظر: الإتقان في علوم القرآن، 2/ ص797-803.

(36) انظر: دلالة التراكيب، ص102-104.

(37) الرقيات، ديوان عبيد الله بن قيس، ص91.

(38) انظر: دلائل الإعجاز، ص215-217.

(39) انظر: المصدر السابق، ص218.

(40) انظر: المصدر السابق، ص226.

(41) انظر: المصدر السابق، ص227.

(42) انظر: المصدر السابق، ص220.

(43) انظر: المصدر السابق، ص230-231.

(44) انظر: المصدر السابق، ص222-225.

(45) دلالة التراكيب، ص114.

(46) دريد بن الصمّه الجشمي، ديوان دريد بن الصمّه، ص47.

والبيت مطلعه في الديوان: وهل أنا إلا من غزيه

(47) دلالة التراكيب، ص(115-118)، بتصرف بسيط.
(48) المصدر السابق، ص122.
(49) المصدر السابق، ص154-155.
(50) قطب، في ظلال القرآن، ط34، 3/ ص1745.
(51) انظر: المصدر السابق، 3/ ص1746-1748.
(52) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، المجلد الخامس، جزء11/ ص140.
(53) انظر: المصدر السابق، جزء 11/ ص140-141.
(54) انظر: قطب، في ظلال القرآن، 5/ ص3065.
(55) الراغب، المفردات في غريب القرآن، ص461.
(56) التحرير والتنوير، 24/ص149.
(57) انظر: قطب، في ظلال القرآن، 6/ ص3278-3280.
(58) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 25/ ص132.
(59) انظر: المفردات، ص450.
(60) انظر: المصدر السابق، ص455.
(61) هي: الأنعام: 32، 7، محمد:36، الحديد:20.
(62) هي: الأعراف: 51، العنكبوت:64.
(63) انظر: الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ط1، ص62-63، وانظر: الاسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات، ط1، ص120-124، وانظر: ابن الزبير، ملاك التأويل، ط1، ص444-448، وانظر: المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ط1، 2/ ص194-200.
(64) انظر: العسكري، الفروق اللغوية، ط5، ص548.
(65) انظر: قطب، في ظلال القرآن، 1/ ص(349-355).
(66) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ط1، الهند، 2/ ص191.
(67) انظر: المفردات، ص359.
(68) الرازي، التفسير الكبير، ط2، 3 /ص 453.
(69) انظر: في ظلال القرآن، 2/ ص(1004-1020).
(70) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 7/ص92.
(71) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 6/ ص(192-193).
(72) انظر: المصدر السابق، 6/ ص194.
(73) الرازي، التفسير الكبير، 4/ ص515.
(74) انظر: قطب، في ظلال القرآن، 3/ ص1564.
(75) انظر: المصدر السابق، 3/ ص1654.
(76) انظر: المصدر السابق، 4/ ص2040.
(77) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 13/ ص(133-134).
(78) انظر: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ط1، 13/ ص185.
(79) انظر: قطب، في ظلال القرآن، 5/ ص(2718-2719).
(80) الخطيب الإسكافي، درة التنزيل، ص124.
(81) البقاعي، نظم الدرر، 5/ ص577.
(82) انظر: في ظلال القرآن، 5/ ص (3174-3176).
(83) انظر: ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، 1/ ص (29-34).
(84) انظر: المصدر السابق، 1/ ص30.
(85) انظر: المصدر السابق، 1/ ص (307-310).
(86) انظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ط3، 2/ ص(218-219).
(87) انظر: المصدر السابق، 2/ ص(218-219)، وانظر: الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشرة، ط3، ص495.
(88) انظر: في ظلال القرآن، 6/ ص(3474-3476).
(89) نظم الدرر، 7/ ص451.
(90) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط1، 6/ ص(49-50).

المصادر والمراجع

الأزهري (370هـ)، أبو منصور محمد بن أحمد، معجم تهذيب اللغة، تحقيق: رياض زكي قاسم، 2001م، ط1، بيروت، دار المعرفة.

الإسكافي (420هـ)، الخطيب بن أبي الفرج، 1973م، درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات، ط1، بيروت، دار الآفاق.

الألوسي، 1270هـ، السيد محمد شهاب الدين البغدادي، 1999م، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ط1، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

البقاعي، 885هـ، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر، 1973م، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ط1، الهند، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد.

التفتازاني، 792هـ، سعد الدين مسعود بن عمر، 2004م، المطول شرح تلخيص المفتاح ومعه حاشية العلامة السيد الشريف الجرجاني (816هـ)، ط1،بيروت،دار إحياء التراث العربي.

التهانوي، 1158هـ، محمد علي الفاروقي، 1998م، كشاف اصطلاحات الفنون، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.

الجرجاني 471هـ، عبد القاهر بن عبد الرحمن، دلائل الإعجاز، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، 2001م، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.
الجرجاني، 816هـ، الشريف، 2004م، حاشية الشريف الجرجاني على المطول للتفتازاني، ط1، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
ابن الجزري، 833هـ، الحافظ أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي، 2006م، النشر في القراءات العشر، ط3، بيروت، دار الكتب العلمية.
الحطاب، فؤاد عبد اللطيف، 1998م، أسلوب الحصر في القرآن الكريم عند النحويين والبلاغيين (مخطوط)، إشراف: يوسف أبو العدوس، كلية الآداب، جامعة اليرموك، الأردن.
دريد بن الصمّه الجشميم، ديوان دريد بن الصمّه، قدم له شاكر الفحّام، جمع وتحقيق وشرح محمد خير البقاعي، 1981، دار قتيبة.
الدمياطي، 1117هـ، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني، 2006م، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، ط3، بيروت، دار الكتب العلمية.
الراغب، 502هـ، أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، بيروت، دار المعرفة.
الرازي، 606هـ، فخر الدين محمد بن عمر، 1997م، التفسير الكبير، ط2، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
الرقيات، 75هـ، عبيد الله بن قيسم، ديوان عبيد الله بن قيس، تحقيق وشرح: محمد يوسف نجم، 1958، بيروت، دار صادر.
ابن الزبير، 708هـ، أحمد بن إبراهيم الغرناطي، 1983م، ملاك التأويل، ط1، دار الغرب.
الزمخشري، 538هـ، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق وتعليق ودراسة: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوّض، 1998م، ط1، مكتبة العبيكان.
الزمخشري، 538هـ، محمود بن عمر، 2009م، أساس البلاغة، ط1، بيروت، دار صادر.
السبكي، 773هـ، أحمد بن علي بن عبد الكافيم، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، 2003، ط1، بيروت، المكتبة العصرية.
السكاكي، 626هـ، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي، مفتاح العلوم، حققه وقدم له: عبد الحميد هنداوي، 2000م، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.
السيوطي، 911هـ، جلال الدين عبد الرحمن، 1987م، الإتقان في علوم القرآن، ط1، دمشق وبيروت، دار ابن كثير.
الصعيدي، عبد المتعال، 1991م، البلاغة العالية (علم المعاني)، ط2، القاهرة، مكتبة الآداب.
ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر والتوزيع.
عباس، فضل حسن، 2004م، البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، ط9، عمان، دار الفرقان.
العسكري، 395هـ، أبو هلال، 1981م، الفروق اللغوية، ط5، بيروت، دار الآفاق الجديدة.
ابن فارس، 395هـ، أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الدار الإسلامية.
الفراهيدي، 170هـ، الخليل بن أحمد، كتاب العين، ترتيب وتحقيق عبد الحميد هنداوي، 2003م، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.
القزويني، 739هـ، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، تلخيص المفتاح، قرأه وكتب حواشيه.ياسين الأيوبي، 2002م، ط1، بيروت، المكتبة العصرية.
قطب، سيد، 2004م، في ظلال القرآن، ط34، دار الشروق.
الكرماني، 505هـ، 1986م، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.
المطعني، عبد العظيم إبراهيم، 1992م، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، ط1، القاهرة، مكتبة وهبة.
ابن منظور، 711هـ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري، لسان العرب، بيروت، دار صادر.
أبو موسى، محمد محمد، 2004م، دلالة التراكيب، دراسة بلاغية، ط3، القاهرة، مكتبة وهبة.
أبو موسى، محمد محمد، 1988م، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، ط2، القاهرة، مكتبة وهبة.
الميداني، عبد الرحمن حبنكه، 1996م، البلاغة العربية: أسسها وعلومها وفنونها، ط1، دمشق، دار القلم وبيروت، الدار الشامية.
ابن هشام، 761هـ، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، 2005م، بيروت، المكتبة الحصرية.

Al-Qasr Style by "But" and "Exception" after Negation through "Ayat" about Life and Earth and Pleasures

Jehad M. Alnserat*

ABSTRACT

This study examines an important rhetorical way (AlQasr) through some tools: "But" and "Exception after Negation" through Ayah about Life on Earth and pleasures, in order to stand on illustrative purposes of diversity style of (AlQasr) according to denote context and the diversity of positions concerning the Ayah in order to detect an important tributary of Ijaz relating the illustrative Ijaz.

Keywords: Exception, Negation, Al-Qasr.

* Faculty of Shari'a, The University of Jordan, Amman. Received on 1/4/2013 and Accepted for Publication on 3/9/2013.